(الفصل الثانى)

جهود الحكيم العلمية وآثاره

* جهود الحكيم فى التفسير
* جهود الحكيم فى الفقه
* جهود الحكيم فى علم الكلام
* أثر الحكيم و آثاره

المبحث الأول

جهود الحكيم فى التفسير

لقد كان الحكيم الترمذى ، واسع الثقافة، غريز المادة، ارتحل لطلب الحديث، وجاب الآفاق فى خراسان، والعراق، وحدث بنيسابور وأخذ عن أئمة المحدثين، وكبار العلماء، ثم أنه لقى أكابر الصوفية وأطلع على جميع ثقافات عصره، فامتدت ثقافته إلى جميع فروع المعرفة[١].

وقد بدأ اهتمام الحكيم بالقرآن منذ رحلته إلى الحج التى تحدث عنها فى رسالته، «بدو شأن أبى عبدالله» حيث سأل الله سبحانه وتعالى عند الملتزم أن يرزقه حفظ كتابه، فرجع وقد بدا عليه الحرص على حفظ القرآن، فأقامه ذلك بالليل، وكان لايمل من قراءته، وقد يظل فى قراءاته إلى الصباح حتى وجد حلاوة ذلك[٢].

وركز الحكيم فكره فى فهم القرآن الكريم، والتعمق فى استخلاص أسراره ومعانيه الظاهرة والباطنة، وقد انعكس هذا الفهم على أثار الحكيم كلها فى شتى فروع المعرفة التى ناقشها فى كتبه ورسائله المتعددة.. وكانت حصيلة هذا الاهتمام بالقرآن عدداً من المؤلفات بين كتاب ورسالة تتصل بالقرآن الكريم، وتكشف عن جوانب مهمة من فهمه لكتاب الله عز وجل»[٣] ومن هذه المؤلفات:

---

(١) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة« تحصيل نظائر القرآن» للترمذى ص ١٠، ط مطبعة السعادة بمصر.

(٢) الحكيم الترمذى، «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٤١ بتصرف.

(٣) الدكتور الجيوشى«الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن» الضياء عدد ١٣، س٤، ص ٩٨دبى.

١ ـ تفسير القرآن الكريم ذكر الهجويرى فى «كشف المحجوب» :أن الحكيم كان قد بدأ تفسيرا ولم يف العمر بإتمامه، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عـمله[١].

٢ ـ كتاب «الأمثال من القرآن والسنة» : والترمذى فى هذا الكتاب ينهج منهجا فريدا فى استعراضه لظاهرة خاصة فى التعبير عن المعانى، تعمد إلى ضرب الأمثال للإيضاح والبيان[٢]، وجاء فى مقدمة الكتاب: «أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء، وخفيت عليه الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلا من عند أنفسهم، لا من عند نفسه ليدركوا ماغاب عنهم»[٣].

ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها، فيدركوا ماغاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة [٤].

٣ ـ كتاب «تحصيل نظائر القرآن» الذى يبين لنا أن الحكيم أجاد فى الإحاطة باللغة العربية وفقهها. وأنه صاحب منهج فى التذوق لمعانى القرآن الكريم»[٥].

٤ ـ تفسير آية لاشرقية ولاغربية، وقد تناول تفسيرها فى أكثر من موضع من كتبه ورسائله»[٦] ولا زال هذا التفسير مخطوطا فى مكتبات العالم».

٥ ـ طائفة كبيرة من المسائل يتناول كل منها تفسير آية من القرآن الكريم ومعظمها موجود ضمن مجموعة «ليبزيج»[٧].

---

(١) الهجويرى ، كشف المحجوب جـ ١، ص ٣٥٣.. وهذا التفسير لم يتم العثور عليه حتى الآن.

(٢) تم تحقيق هذا الكتاب بمعرفة الأستاذ على محمد البجاوى، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(٣) الدكتور الجيوشى، «الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن» الضياء ع١٣، ص ٩٨ ،س٤ دبى.

(٤) الحكيم الترمذى، «الأمثال من القرآن والسنة»، ص ١، ٢.

(٥) حقق هذا الكتاب«تحصيل نظائر القرآن .الأستاذ حسنى نصر زيدان وطبع سنة ١٣٩٠ هـ بمطبعة السعادة.

(٦) الدكتور الجيوشى، الضياء ع ١٣، ص ٩٨، س٤. دبى.

(٧) مجموعة ليبزيج رقم ٢١٢ القسم العربى.

ومما يسترعى انتباه الباحث أن الحكيم الترمذى قد عالج فى كثير من مؤلفاته قضايا قرآنية وكان الحكيم يرى أن القراء ليسوا بحمله للقرآن ـ كما يحلوا لهم أن يدعوا ذلك ـ لأن حمل كتاب الله لايكون بحمل حروفه وألفاظه فقط، يقول الحكيم: «فحملة القرآن من حمل معانيه قلبا، وحمل حروفه منطقا، وحمل كسوته صدرا، فإن القرآن كلام الله عزوجل، وعلى كل حرف منه نور، وذلك النور كسوته، فهو يطلب قلبا طاهرا، ونفسا صافية، وصدرا مشروحا، حتى يلج ذلك النور مع الحروف. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة، وقف خارجا، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف ـ أعنى معانى الحروف علما ـ قال الله تعالى :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[1] فالكتاب هو الحروف المؤلفة المنظمة بنظامه المتضمنة معانى كثيرة، والنور كسوته، والكتاب مشتق من الكتب وهو النظام، ومنه سميت الكتابة. والقراءة اتباع الحروف بعضها بعضا قال الله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] فإذا وجد قلبا طاهرا حل به تبعه النور، فأضاء الصدر بمعانيه، وإذا لم يجده بقى «علم» الحروف وعلمه بلا نور، فيضئ الصدر بمعانيه، ولم تصر الأخبار كالمعاينة»[3].

«فحمل القرآن إنما يحتاج إلى قلب طاهر ونفس صافية، وصدر مشروح بالإيمان كى يدرك معانيه وكسوته. أما قراءة القرآن وأداؤه بغير هذا القلب الطاهر والنفس الصافية، والصدر المشروح، فإنما هى اتباع الحروف بعضها، وتحصيل لمعانى الحروف علما فحسب. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة وقف خارجا، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف»[4].

فالقراء فى نظر الحكيم الترمذى يحصلون معانى القرآن علما فحسب وليس هذا هو المراد لأن المطلوب هو تحصيل معانى القرآن علما ومعرفة ولايتأتى ذلك إلا

---

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١٥.

(٢) سورة القيامة، الآية رقم ١٨.

(٣) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ورقة رقم ٦٢، ٦٣ بلدية الاسكندرية رقم المخطوط ٣٥٨٦ج.

(٤) الاستاذ عبدالمحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٨٢.

بالقلب الطاهر، والنفس الصافية، والصدر المشروح وتلك هى الحقيقة التى تحتاج إلى اهتمام من حملة القرآن الكريم يقول الحكيم:«وإنما القرآن كلام الله سبحانه تكلم به، وكلم به عباده، وأنزل كلامه وحيا تنزيلا مع الكسوة، وكسوته نوره، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[1]«فالنور الذى من الله تعالى هو أصل الأنوار، انشعب، فصار فى كل حرف منه شعبة، ثم ألفها العالم الجواد الجليل بعلمه وحكمه وعدله، فقسمه بين الحروف، والكتاب هو الحروف المنظومة، والكتب النظام، ومنه سميت الكتيبة فى الجيش، لأنها تتبع بعضها بعضا، فتلك الحروف المنظومة المؤلفة هى الكتاب ألفها رب العالمين بجوده ولطفه ثم بحكمته وعدله، ثم أجراها من المجرى بعزة محشوة بتلك الحروف بأنوار المعانى ثم أنزلها برحمته تنزيلا متضمنا وحيه فيها المنن واللطائف لإبراز المكنون والعطف على أحبابه، والفرائض والحدود للعبادة، والنذارة والبشارة للمعونة، والهدى والبيان الشافى لما فى الصدور من سقم النفس لاتخاذ الحجة»[2].

ولعله مما يجب أن يتنبه له الدارسون، ويفطن إليه الباحثون «أن الحكيم الترمذى لم يلتزم منهجا واحدا فى تفسيره للقرآن الكريم فالمتتبع لما جاء عن الحكيم فى التفسير يرى أن له أكثر من منهج وان كان الاتجاه الصوفى يغلب على أكثر ما كتبه فى حقل التفسير.. فهناك التفسير الظاهرى الذى جرى عليه أكثر المفسرين، ويمثل هذا المنهج فى أثار الحكيم الترمذى، تفسير الآيات التى تناولها، وهناك التفسير الذى يركز على المعنى الباطن لكلمات القرآن الكريم، معتمدا على أن لكل كلمة من القرآن ظاهرا وباطنا.. وهناك التفسير القائم على استنباط أسرار الحروف التى

---

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١٥

(٢) الحكيم الترمذى «مخطوط الأكياس والمغترين» ص ٥٩، ٦٠ المكتبة الظاهرية بدمشق، منه صورة بمعهد المخطوطات رقم ٣٥١ تصوف.

تتألف منها الكلمات .. هذه هى الاتجاهات العامة التى نجدها مبثوثة فى رسائل الحكيم وكتبه فى التفسير.. وهناك إلى جانب ذلك اتجاهات خاصة»[1].

ولايخفى أن هذه الاتجاهات ترجع إلى تذوق الحكيم لمعانى القرآن الكريم، والوجدان الدينى الذى يحس به ، مما جعله يتنقل من الموضوعية إلى التجربة العندية بالمشاهدة الروحانية من الباطن، بحيث يمكن أن نقول أن هذه التجربة والمشاهدة قد أصبحت لدى الحكيم هى الأصل المعتمد فى استنباط المعانى من القرآن..

«ولذا نجد أن الحكيم ينقض فكرة الترادف[2] فى الألفاظ ويرفضها رفضا قاطعا، معللا ذلك بأن اللفظ إذا كان مرادفا للفظ آخر، أدى إلى الاختلاف فى الفهم، فقد يعلم الإنسان لهذا المعنى لفظا، ويعلم الآخر لفظا آخر، فيختلف الفهم»[3].

وإذا كان بعض العلماء يرى أن الترادف يوسع دائرة التعبير، ويسهل مجال النظم والنثر، بالإضافة إلى أنه يعمل على تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوى الأخرى «فإن الحكيم يرفض هذا، وينهج نهجا خاصا، يعرض فيه لطائفة من الألفاظ والعبارات التى يقال بترادفها، وذلك ليثبت نقيض ذلك»[4] وتقوم فكرة تأليفه لكتاب «الفروق ومنع الترادف» على أن الترادف بالذات أمر مستحيل بين لفظتين.. ولاشك أن الكتاب شاهد صدق على المجهود الذى بذله الحكيم للاستفادة من معطيات التحليل النفسانى واللغوى لدعم هذه القضية. «لقد كان الحكيم بارعا فى النفسانيات وعلى معرفة متعمقة واسعة باللغة وأسرار بيانها. لذلك جاءت القاعدة التى يبنى عليها نظريته فى منع الترادف تقول: يقال فى لفظتين أنهما مترادفتان إذ تدلان على عمل متشابه فى الظاهر، لكن الصحيح أن بين اللفظتين خلافا لايمكن إدراكه إلا بتجاوز الظاهر إلى الباطن، أى إلى المصدر النفسانى الذى عنه ينبعث

---

(١) الدكتور الجبوشى، الضياء ع ١٣، ص ٩ . ٩س ٤ دبى الإمارات العربية.

(٢) الترادف هو دلالة عدة ألفاظ على معنى واحد كالحنطة والبر والقمح للحبة المعروفة.

(٣) الاستاذ حسنى نسر «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٤.

(٤) المصدر السابق ص ١٤.

العمل، على أن لهذا المصدر وجهين: أنه القلب الذى يولد الأعمال الصالحة من وجه، ومن الوجه الآخر أنه النفس التى لايسعها مادامت سقيمة إلا أن تولد أعمالا ناقصة. ومن الشواهد على ذلك فيما يقول الترمذى: هو التشابه فى الظاهر بين الحركات التى تنصاغ فيها «المداراة» و«المداهنة» فإن هاتين اللفظتين تعنيان كلاهما: المعاملة باللطف والوداعة، لكن بينهما تباينا فى الباطن أى فى النية فإن صاحب «المداراة» صادق مخلص فى تلطفه، على حين أن صاحب المداهنة متملق مغرض.

والحكيم الترمذى لم يقف عند هذا الحد. بل راح يوضح أن الأسماء والألفاظ سمات المدلولات والحقائق. ويجب أن يكون هناك عامل مشترك ثابت بين صور اللفظ المتعددة. فاللفظ مهما تعدد معناه، فمرجعه إلى حقيقة واحدة تلك هى الفكرة الرئيسية التى قام عليها تأليفه لكتاب «تحصيل نظائر القرآن»[1]. والذى يثبت فيه الحكيم: أن الترادف وان وقع بين ألفاظ فلانها تدل على حالة نفسية واحدة تختلف بين وقت وآخر. فلم يعد اختلاف الوجوه بعد ذلك مأخوذا من مجرد اللفظ بل من علاقة ذلك اللفظ بالنفس التى تخلع هى عليه معانيه..

ويبدو أن الحكيم الترمذى قد وقع فى يده كتاب «الوجوه والنظائر» الذى وضعه مقاتل بن سليمان. وخص فيه لفظة «الوجوه» بالألفاظ ولفظة «النظائر» بالآيات. وهذا يعنى أنه بين لكل لفظة قرآنية الوجوه المختلفة التى وردت عليها فى الآيات. فتصبح هذه الأخيرة ان وردت فيها اللفظة الواحدة بوجه واحد هى النظائر[2].

وكان مقاتل بن سليمان يذهب إلى منهج ثلاثى الوجوه، أما الوجه الأول فهو قراءة النص بحرفه ولفظه لاستخراج ماينطوى عليه هذا الحرف واللفظ من معنى معين وضعى مباشر.. وأما الوجه الثانى: فهو أخذ النص بقراءة تاريخية أى برده إلى القرائن التاريخية التى اكتنفت تنزيله أو سببته.. وأما الوجه الثالث: فإنه حمل

---

(١) انظر: الاستاذ حسنى زيدان، «تحصيل نظائر القرآن» المقدمة ص ١٤.

(٢) انظر : بولس نويا «التفسير القرآنى والمصطلح الصوفى» ص ٥٢.

النص على معنى رمزى إشارى[1]. وفى كتاب «الوجوه والنظائر» بعض التأليف بين القراءة باللفظ، والقراءة بالتاريخ، والقراءة بالرمز والإشارة. وهذا التأليف يقوم على مجرد ترادف الألفاظ القرآنية فقط..[2].

وإذا كان صاحب كتاب «الوجوه والنظائر» لايرى أن اللفظ يرد على وجوه كثيرة متباينة فهو فى مكان بمعنى، وفى آخر بمعنى، وفى ثالث بمعنى.. وهكذا، مثلا كلمة الذكر تأتى مرة بمعنى الصلاة، وبمعنى الخير، وبمعنى الوعظ، وبمعنى الشرف، وبمعنى القرآن.. فإن الحكيم الترمذى يرى:«أن هذه المعانى جميعا، وتلك الوجوه المتعددة فى الظاهر إنما مردها أصل واحد، تنشعب عنه، وترد إليه[3] فكلمة «الذكر» هذه إنما مردها إلى أصل واحد، ثم تشعبث هذه الوجوه عنه[4] فإن كان للفظة القرآنية الواحدة وجوه متعددة من المعانى، فذلك عائد إلى تعدد الأحوال فى النفس باختلاف الظروف والأوقات. ويعنى ذلك مثلا: أن الألفاظ الشارحة الثمانية عشر التى تذكر للفظ «الهدى» فى القرآن على أنها مرادفة له، لاتدل أصلا إلا على معنى واحد تشير إليه لفظة «الميل» وحدها، أما المعانى المتعددة التى تؤخذ عليها كلمة «الهدى» فإنما ترتد إلى إطلاق هذه الكلمة على الأحوال النفسية المختلفة»[5].

لقد قام الترمذى اذن فى كتابيه «منع الترادف» و«تحصيل نظائر القرآن» بعمل واحد ذى وجهين: فبّين أولا كيف تحل وحدة الترادف بين الألفاظ لتكشف عن فروق هذه الأخيرة. ثم ثانيا كيف ترتد كثرة المعانى فى اللفظ الواحد إلى كثرة تساويها من ألفاظ لاتتألف إلا بعد تطبيقها على ماينشأ فى النفس ما أحوال. ثم أن النفس

---

(١) راجع : فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٥ من مجلة «الباحث» العدد رقم ١٠ السنة الثانية ، فرنسا.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٥.
(٣) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة «تحصيل نظائر القرآن» ص١٤، ١٥.
(٤) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» ص ٥١ ـ ٦٧، وانظر المقدمة أيضاً.
(٥) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٩ ـ ٢٤.

هى التى توحد بين ذلك كله وتتيح لنا تصنيفه بالرجوع إلى التجربة والمشاهدة من الباطن.[1]

لقد تمكن الحكيم من الجمع بين مقياس النفس واللغة، حيث أخذ اللغة قواعدا وفنونا وصهرها فى بوتقة التجربة الدينية بالمشاهدة من الباطن وفى ضوء هذا عالج الترمذى معانى ألفاظ بقاعدة الوجوه والنظائر، ونخص بالذكر ما تناوله الحكيم بتحليله وكان متصلا بالتصوف مثل ألفاظ : الهدى، والكفر، والشرك، والمرض، والشئ السوء، والذكر، والخوف، والرجاء، والصلاة، والروح، والوحى، والقنوت، والصلاة، والطهور، والظن، والحكمة، والظلم، والتأويل، والدين، والإسلام، والإيمان، والشهيد»[2].

ان الحكيم يعتمد عملا ذا وقتين : وقت أول يرد الحكيم فيه تلك المعانى المتعددة إلى وحدة نفسية هى أصلها، ثم فى وقت ثان يبين كيف تتفرع تلك الكثرة فى الوجوه عن ذلك الأصل أو ترتد إليه. وللقيام بهذا العمل لجأ الترمذى إلى طريقتين متداخلتين متساوقتين، فإنه تارة يستخدم التحليل اللغوى الذى مكنه منه اطلاعه الواسع على اللغة العربية وأسرار بيانها ثم أنه تارة أخرى يتصرف بالمعطيات المباشرة التى تمده بها تجربته السلوكية فى الطريق إلى الله.وبهذا كان عطاء الحكيم كبيرا..

---

(١) الأب فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٨م الباحث، ع١٠، س ٢ بيروت.

(٢) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» تحقيق الاستاذ حسنى محمد زيان، ط السعادة.